

لا شك أن حدود مصطلح فقه اللغة في الدراسات اللغوية العربية كان ولا زال مرناً ففضاضا يتسع ميدانه لمن يريد به التوسع في استعماله إذ يتعرض الباحث فيه الى حياة اللغة وما يصاحبها من تحول وتطور ، ودراسة اصواتها وما يسهم في تشكل اللغة العربية فضلا عن النظر في دلالة الالفاظ وطرائق تحديدها وتصنيفها، ولا يقف الامر عند هذا بل ذهب بعض الباحثين الى دراسة اصول الابنية الصرفية واشتقاقاتها والنظر في معاني الالفاظ (١) او البحث في خصائص اللغة العربية وأخوتها العروبيات (٢) وغيرها من الظواهر اللغوية المتنوعة التي درست في اطار البحث اللغوي المقارن (٣) .

وهذا الامر قد ادى الخلط بين مفهوم فقه اللغة وعلم اللغة ، لأننا وجدنا من يجعل منهما شيئا واحدا لا يمكن فصله، فالدكتور علي وافي جعل منهما علما واحدا يعرف تارة بفقه اللغة واخرى بعلم اللغة ، يقول: ((أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها اسم " فقه اللغة" وهذه التسمية هي خير ما يوضح لهذه البحوث، فان فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من القوانين)) (٤) وفي هذه الحال يرى الدكتور عبده الراجحي أن فقه اللغة عند الدكتور علي وافي يختص بالبحوث المتصلة بالعربية وحدها (٥)

ويرى بعض الباحثين (٦) أن مصطلحي فقه اللغة وعلم اللغة يفيد المقصود ويتسق مع المفهوم العلمي لمباحث اللغة ، وان استعمال فقه اللغة بدلا عن علم اللغة او العكس لا لبس فيه وجريا على ما قام به المتقدمون من اللغويين العرب .

وذهب الدكتور صبحي الصالح الى أن تحديد الفروق بين هذين المفهومين في شيء من الصعوبة كون ((مباحثهما مداخله لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديما وحديثا، وقد سمح هذا التداخل أحيانا باطلاق كل من التسميتين على الأخرى، حتى غدا العلماء يسردون البحوث

(١) ينظر كتاب الدكتور محمد المبارك " فقه اللغة " وكتاب الدكتور علي وافي " فقه اللغة"

(٢) ينظر كتاب الدكتور صبحي الصالح " دراسات في فقه اللغة"

(٣) ينظر كتاب الدكتور ابراهيم السامرائي " فقه اللغة المقارن"

(٤) فقه اللغة للدكتور علي وافي : ١٣

(٥) ينظر فقه اللغة في كتب العربية للدكتور عبده الراجحي: ١٠

(٦) الدكتور محمد المبارك في كتابه فقه اللغة : ٢٦ .

اللغوية التي تسلك عادة في علم اللغة، ثم يقولون: وفقه اللغة يشمل معظم البحوث السابقة، ولا سيما إذا قورنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة، وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضريين من ضروب الدراسة اللغوية، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما، وجدناها تافهة لا وزن لها، فاسم علم اللغة عند الفرنجة: Linguistique ou Science Du Langage، أي: العلم المختص بالكلام أو اللغة؛ واسم فقه اللغة عندهم: "philologie"، وهي كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما philos بمعنى الصديق، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام، فكأن واضح التسمية لاحظ أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام، للتعلم في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه. وعلى هذا النحو كان العلماء في عصر إحياء العلوم يفهمون "فقه اللغة"، بل كان هذا الاسم إذا أطلقوه لا ينصرف إلا إلى دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية؛ من حيث قواعدهما، وتاريخ أدبها، ونقد نصوصها، وأصبحنا اليوم نعد هذه الدراسة متحفية، ونسميها: "فقه اللغة الاتباعي" philologie classique وربما لا يكون مفهوم علماننا القدامى لـ "فقه اللغة" شديد الاختلاف عما أصبحنا نسميه: "فقه اللغة الاتباعي" إلا في مواطن قليلة؛ فسرى أن كثيراً من مباحث القوم في اللغة كان يتناول العربية الفصحى؛ من حيث قواعدها، وتاريخ أدبها، ونقد نصوصها، فقابلت الفصحى عندهم الإغريقية واللاتينية الفرنجة. ومع أن دراسانا هذه اشتملت على طائفة من المباحث خرجت عن النطاق الاتباعي التقليدي، أثرتنا عندها ملحقة بفقه اللغة؛ لأنها قصرت على إبراز خصائص لغاتنا العربية، فكانت أجدراً أن تسمى بالاسم الشائع عند العرب حين ألفوا في هذه الموضوعات، وإنه ليجلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألا يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً، وأن يعمموها على جميع البحوث اللغوية؛ لأن كل علم لشيء فهو فقه، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تسمى فقهاً^(٧)

والأمريات على حاله لم نجد من وقف عند حدود هذين المصطلحين، وإذا ما استعان الباحث بمخرجات الدرس اللغوي الغربي سيجد فيه شيئاً من عدم التوافق من حيث المنهج والموضوع.

الغربيون ذهبوا إلى "علم اللغة" وتحريره من فقه اللغة وكان على رأس هولاء "راسك" عالم فقه اللغة الأيسلندية و"بوب" عالم فقه اللغة السنسكريتية وجريم عالم فقه اللغة الجرمانية، وكان هدفهم تحرير علم اللغة، فقالوا بأن اللغة موضوع طبيعي وقال بوب ((ينبغي أن ننظر إلى اللغات على أنها اجسام طبيعية عضوية تتكون وفقاً لقوانين محدودة وتطور وفقاً لمبدأ داخلي للحياة ثم تموت حين لا تكون قادرة على فهم نفسها)) ومن جاءت نظرة هولاء العلماء ومن جاء

^(٧) دراسات في فقه اللغة: ٢٠

بعدم من تلاميذهم الذين عرفوا بالنحويين الجدد الى ما ينظر اليه عالم فقه اللغة الى " اللغة" بوصفها جزءا من ثقافة امة، اما عالم اللغة فيرى اللغة موضوعا طبيعيا قائما بذاته، وينبغي دراسته دراسة خاصة.

وبعد ذلك جاء دي سوسير وبلومفيلد و ساير، حيث رأى دي سوسير أن علم اللغة لا يدرس لغة معينة وانما يشمل جميع ظواهر الكلام الانساني سواء أكان اصحابه متحضرين ام بدائيين وسواء كان ذلك في فترات قديمة ام حديثة، ومن هنا قيل إن علم اللغة يدرس اللغة من اجل ذاتها اي لا يجعل منها وسيلة لغاية ما، كما هو حال اللغة كدراسة الثقافة والآداب في فقه اللغة ومن هنا اصبح علم اللغة ينظر الى اللغة بوصفها مادة محسوسة كما هي وليس كما ينبغي ان تكون، والشيء الاخر الذي ميز علم اللغة توافر المادة اللغوية الصالحة للبحث حتى يمكن الوصل من خلالها الى قوانين باعتماد المنهج العلمي وهم في هذه الحال ابتعدوا عن البحث في أولية اللغة او المفاضلة بين اللغات او البحث عن اصول اللغة الام...

ومن هنا ذهب علماء اللغة الى الاستعانة بالعلوم الاخرى شريطة أن لا تسيطر مناهجها على علم اللغة. وان تدرس داخل علم اللغة وفقا للقوانين التي يصل اليها اللغويون من استقصاء المادة العلمية.

ولعلم اللغة مسائل قيل تتصل باللغة الى حد ما لا يغفلها علم اللغة مثل " ماهية اللغة ووظيفتها وبيئتها وطريقة جمع المادة اللغوية فضلا عن المستويات اللغوية التي عنيت بها ابتداءً، ومن هنا جاء تحديد مناهج علم اللغة حين يدرس اللغة في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ك المنهج الوصفي والتاريخي والمقارن، فقيل ان المنهج الوصفي يدرس لغة معينة في فترة معينة وزمان معين . ومن هنا نستطيع ان نقول بان فقه اللغة يدرس لغة ما متجاوزا حدود الزمان والمكان، وهذا المنهج يعتمد في الاساس على بعض نتائج المنهج التاريخي والمقارن، لان المنهج التاريخي يعنى بعرض التطورات والتغيرات التي مرت بها اللغة وهنا يعرف هذا المنهج بالمنهج المتحرك على عكس المنهج الوصفي الذي يعرف بالساكن. اما علم اللغة المقارن فيدرس التقابلات المطردة أو المنتظمة بين لغتين أو أكثر داخل العائلة اللغوية الواحدة، لذلك قيل إن الدراسة الوصفية والتاريخية لا تصلحان وحدهما لتفسير عدد كبير من الظواهر اللغوية في لغة ما.

هذا هو الإطار العام " لعلم اللغة" في الدرس اللغوي الغربي، ومنه يمكن ان نعرف على علم فقه اللغة الذي يبحث في اللغات القديمة وتقسيماتها واعادة صياغتها عن طريق النظر في النقوش وتفسيرها وشرحها، بوصفها علم يدرس الحضارة وهذا احد اتجاهات فقه اللغة. وهو في هذه الحال يعتمد النصوص المكتوبة، وهو في ذلك لا يختلف عن علم اللغة اذما نظرنا الى طبيعة المادة المنهج الذي يعتمد في دراستها.

فقه اللغة عند الغربيين يقارب مصطلح فقه اللغة المقارن او ما يعرف عند البريطانيين علم اللغة التاريخي والمقارن وعند الالمان الدراسة العلمية للنصوص الادبية القديمة ، وفي هذه الحال يكون فقه اللغة علم يعنى بدراسة اللغة من منظور جمالي وانساني بالنظر الى الفنون والآداب، وقيل ان علم اللغة يقدم للدارس في فقه اللغة جملةً من الاسس اللغوية لتكون دعامة لدراسته.

ومنها ظهرت الصلة بين هذين العلمين بعد تحرير وتحديد ميدان علم اللغة بصورة ضيقة كونه يعتمد تحليل التراكيب اللغوية ووصفها في ميدانها اللغوي، وحينما يتسع ميدان هذه الدراسة والنظر في تلكم الظواهر اللغوية والبحث في دلالتها نجد انفسنا في باحة فقه اللغة.

والحمد لله رب العالمين